

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود في قصته عن الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه:

﴿كَهَيْعَصَ (١)﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة.

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا (٢)﴾

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي صحيح البخاري أنه كان نجاراً، يأكل من عمل يده في النجارة.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ قيل: إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره، وقيل: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله، فإن الله يعلم القلب النقي، ويسمع الصوت الخفي. قال بعض السلف: قام عليه السلام من الليل، وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب، يا رب فقال الله له: لبيك لبيك لبيك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤)﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي ضعفت وخارت القوى ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي اضطرم المشيب في السواد. والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة. ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء ولم تردني قط فيما سألتك.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥)﴾

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ أراد بالموالي العصبية، وقيل: الكلاله، وخوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحي إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة، وأجل قدراً من أن

يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثه عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم. هذا وجه، والوجه الثاني أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجاراً، يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مآلاً، ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهدي شيء في الدنيا والوجه الثالث أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة». وفي رواية عن الترمذي في الصحيحين «نحن معشر الأنبياء لا نورث» وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾.

﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦﴾

﴿يَرْثِي﴾ على ميراث النبوة. ولهذا قال ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي نبوتهم كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: 16] أي في النبوة ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك تحبه وتحبه إلى خلقك في دينه وخلقه.

﴿بِزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ٧﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفاً وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له ﴿بِزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، أو شبيهاً كقوله: ﴿هَذَا تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65] أي شبيهاً. عن ابن عباس: لم تلد العواقر قبله مثله، وهذا دليل على أن زكريا ﷺ كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارا، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لعقرهما.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ

عِتِيًّا ٨﴾

هذا تعجب من زكريا ﷺ حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتي منه الولد مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا أي عسى عظمه ونحل، ولم يبق فيه لقاح وجماع، والعرب تقول للعود إذا يبس «عتا، وعسى يعني نحول العظم».

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ٩﴾

﴿قَالَ﴾ أي الملك مجيباً زكريا عما استعجب منه ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه، لا من غيرها ﴿هَيِّنٌ﴾ أي يسير سهل على الله. ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَذَا أَنَّى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ يَنْ أَلْهَرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ١٠﴾ [الإنسان: 1].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (١٠)

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني لتستقر نفسي، ويطمئن قلبي بما وعدتني كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْوِيلَهُ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260] ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ أي علامتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة. قال زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١١)

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي إشارة خفية سريعة ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه.

﴿يَبِيحُ حَيْثُ حُذِيَ الْكِتَابُ بِقُوَّةٍ وَأَيُّنُهُ الْحُكْمُ صَبِيًّا﴾ (١٢)

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً، تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو يحيى عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلماذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه فقال ﴿يَبِيحُ حَيْثُ حُذِيَ الْكِتَابُ بِقُوَّةٍ﴾ أي تعلم الكتاب بقوة أي بجد وحرص واجتهاد ﴿وَأَيُّنُهُ الْحُكْمُ صَبِيًّا﴾ أي الفهم والعلم والجد والحزم والإقبال على الخير والإكباب عليه، والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث. قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا.

﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَرِزْقًا وَكَانَ تَقِيًّا﴾ (١٣)

﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ يقول: ورحمة من عندنا، وتعطفاً من ربه عليه، أي وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان في شفقة وميل، والزكاة والطهارة من الدنس والآثام والذنوب ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ طهر فلم يعمل بذنوب.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (١٤)

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما قولاً وفعلًا أمراً ونهياً، ولهذا قال ﴿وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥)

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال. في الحديث «ما أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا» عن الحسن قال: إن يحيى

وعيسى عليه السلام التقياً، فقال له عيسى، استغفر لي أنت خير مني، فقال له الآخر: أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني، سلمت على نفسي، وسلم الله عليك فعرف والله فضلهما.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركاً عطف عليه بذكر قصة مريم في إيجاده عيسى عليه السلام منها من غير أب، فإن القصتين مشابهة ومناسبة، ولهذا ذكرهما في آل عمران وهنأ وفي سورة الأنبياء يقرون بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته، وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام ﴿اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي اعتزلتهم وتحت عنهم، وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي استترت منهم وتوارت فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي على صورة إنسان تام كامل.

﴿قَالَتْ إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾

لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب خافته، وظنت أنه يريد لها على نفسها فقالت: ﴿إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾ أي إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين، ولكن رسول ربك، أي بعثني الله إليك، وقال ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي فتعجبت مريم من هذا، وقالت: كيف يكون لي غلام؟ أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور، ولهذا قالت ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ والبغي هي الزانية، ولهذا جاء في الحديث النهي عن مهر البغي.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا

مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

أي فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلاماً وإن لم يكن لك

بعل، ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم، وخالقهم الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر وأنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ولا رب سواه وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيبته، ويحتمل أن يكون من خير الله تعالى لرسوله محمد ﷺ، وأنه كنى بهذا عن النسخ في فرجها. والمراد أن الله عزم على هذا فليس منه بد.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (١٢)

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال إنها استسلمت لقضاء الله تعالى والظاهر أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن تسعة أشهر، وقيل: لم يكن إلا أن حملت فريضة.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ (١٣)

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تحت إليه ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبلى، وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس فيه أمرها على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية ﴿وَكَانَتْ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئاً.

﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (١٤)

﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ جبريل، أو عيسى ابن مريم ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي ناداها قائلاً: لا تحزني ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ هو الجدول - النهر الصغير.

﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ فَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَيًّا﴾ (١٥)

﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي وخذي إليك بجذع النخلة، والظاهر أنها لم تكن في إبان ثمرها، ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال ﴿سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَيًّا﴾.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ

أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (١٦)

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي طيبي نفساً. قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر

والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة ﴿فَأَمَّا تَرِينٌ مِّنَ النَّبْتِ أَحَدًا﴾ أي مهما رأيت من أحد ﴿صَوْمًا﴾ صمتاً.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يوماً من البشر، فإنها ستكفي أمرها، ويقام بحجتها، فسلمت لأمر الله عز وجل، واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها، فأتت به قومها تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا ﴿يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي امرأة عظيماً.

﴿يَتَأَخَتَّ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

﴿يَتَأَخَتَّ هَرُونَ﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا﴾ أي أنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك، وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تتأسى به في الزهادة والعبادة.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي لما استرابوا في أمرها، واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامته، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهمكين بها ظانين أنها تزدرى بهم، وتلعب بهم ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى، برأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه. ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة، والمراد أنه قضى أن يؤتيني الكتاب في ما قضى، ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أي وجعلني معلماً للخير نفاعاً امرأة بالمعروف، وناهياً عن المنكر أينما كنت ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: 99].

﴿وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَبَرًّا بِوَالِدِي﴾ أي وأمرني ببر والدي، ذكره بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر

بعبادته، وطاعة الوالدين كما قال ﴿وَفَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23] ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدي فأشقى بذلك . قال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً .

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٢٣)

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ . . .﴾ هذا إثبات لعبوديته لله عز وجل ، وأنه مخلوق من خلق الله الذي يحيي ويميت ، ويبعث كسائر الخلائق ، ولكن له السلامة في هذه الأحوال الثلاثة التي هي أشق ما يكون على العباد ، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢٤)

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يختلف المبطلون والمحققون ممن آمن به وكفر به .

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢٥)

ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ عما يقول الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا . . .﴾ أي إذا أراد شيئاً فإنما يأمرك به فيصير كما يشاء .

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٢٦)

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه ، وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته فقال ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم أي قويم ، من اتبعه رشد وهدى ، ومن خالفه ضل وغوى .

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢٧)

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله ، وأنه عبده ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فصممت طائفة منهم ، وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله أنه ولد زنية ، وقال آخرون : هو ابن الله ، وقال آخرون ثالث ثلاثة ، وقال آخرون : هو عبد الله ورسوله ، وهذا هو الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين . ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا . . .﴾ تهديد ووعيد شديد لمن يكذب على الله ، وافتري ، وزعم أن له ولداً ، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حتماً وثقة بقدرته عليهم ، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه . وفي الصحيحين : إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ وَهُمْ لَا يُدْرِكُونَ﴾ [هود: 102] وقوله : ﴿مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي يوم القيامة .

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي يوم القيامة ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذره عباده.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ...﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون، ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدعي ملكاً، ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً، ولا جناح بعوضة، ولا مثقال ذرة.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ واتل على قومك هؤلاء، الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام فقال:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ...﴾ أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يقول: وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك لأنني ولدك فاعلم أنني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، ولا اطلعت عليه، ولا جاءك ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي طريقاً مستقيماً موثقاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المهروب.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فاطرده، وأبعده، فلا تتبعه تصرف مثله.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي على شركك وعصيانك لما أمرك به ﴿فَتَكُونَ

لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿﴾ يعني فلا يكون لك ولياً ولا ناصرأ، ولا مغيثاً إلا إبليس . وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك .

﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنَ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب إبراهيم لولده فيما دعاه إليه ﴿أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنَ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمْ﴾؟ يعني إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها فانته عن سبها وشتمها وعبثها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتضت منك وشمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجَمَنَّكَ﴾ وقوله: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ أبداً، أو سوباً سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة .

﴿قَالَ سَلَّمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾

قال إبراهيم لأبيه ﴿سَلَّمٌ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63] ومعنى قول إبراهيم لأبيه ﴿سَلَّمٌ عَلَيْكَ﴾ يعني أما أنا فلا ينالك مني مكروه، ولا أذى لحرمة الأبوة ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ ولكن سأسال الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ لطيفاً أي في أن هداني لعبادته والإخلاص له، أو ﴿حَفِيًّا﴾ عودة الإجابة، أو الحفي الذي يهتم بأمره، وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك . ثم بين تعالى أن إبراهيم ألقع عن ذلك ورجع عنه فقال ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٣١﴾﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَئِمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١٣٢﴾﴾ [التوبة: 113، 114].

﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ آلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي اجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي وأعبد ربي وحده لا شريك له ﴿عَسَىٰ آلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد عليه السلام .

﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا...﴾ يعني الثناء الحسن، وإنما قال ﴿عَلِيًّا﴾ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم .

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم فقال ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ مصطفي ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَنَدَبْتُهُ مِنْ بَيْنِ الْأَطْوَارِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْتُهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَنَدَبْتُهُ مِنْ بَيْنِ الْأَطْوَارِ﴾ أي الجانب ﴿الْأَيْمَنِ﴾ من موسى حين ذهب بيتغي من تلك النار، جذوة فرأها تلوح فقصدتها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غريبة عند شاطئ الوادي فكلمه وناداه وقربه فناجاه ﴿وَفَرَّقْتُهُ نَجِيًّا﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً، وكان هارون أكبر من موسى.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل ﷺ، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه صادق الوعد. روى ابن جرير أن إسماعيل النبي ﷺ وعد رجلاً مكاناً يأتيه فيه، فجاء ونسي الرجل، فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد فقال: ما برحت من ههنا؟ قال: إني نسيت، قال: لم أكن لأبرح حتى تأتيني، فلذلك ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أو ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ لأنه قال لأبيه ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: 102] فصدق في ذلك، فصدق الوعد من الصفات الحميدة. كما أن خلفه من الصفات الذميمة وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق، لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة، وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل».

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ...﴾ هذا أيضاً من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان صابراً على طاعة ربه عز وجل، آمراً بها لأهله.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

ذكر إدريس بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً، وقد مر به رسول الله ﷺ في ليلة الإسراء، وهو في السماء الرابعة، أو ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾ في الجنة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبْتِنَا إِذَا نُنَادُوا نُنَادُوا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْبُلُوا سُجْدًا وَإِذَا نُنَادُوا نُنَادُوا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْبُلُوا سُجْدًا وَإِذَا نُنَادُوا نُنَادُوا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْبُلُوا سُجْدًا وَإِذَا نُنَادُوا نُنَادُوا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْبُلُوا سُجْدًا﴾ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى: هؤلاء النبيون ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ فالذي عنى من ذرية آدم إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم ﴿إِذَا نُنَادُوا نُنَادُوا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْبُلُوا سُجْدًا وَإِذَا نُنَادُوا نُنَادُوا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْبُلُوا سُجْدًا﴾ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبكي: جمع بك، فلهذا أجمع العلماء على شريعة السجود ههنا اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم.

﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ ﴿٥٩﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء ﷺ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره المؤدبين فرائض الله التاركين لزواجه، ذكر أنه خلف من بعد ﴿خَلَفَ﴾ أي قرون آخر ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع، لأنها عماد الدين، وقوامه، وخير أعمال العبد، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها فهؤلاء سيلقون عذاباً أي خسراً يوم القيامة. وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ههنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تركها بالكلية، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو مشار عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة، للحديث «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة» والحديث الآخر «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» وقيل: أضاعوا المواقيت، ولو كان تركها كان كفراً ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف بعد سنتين، سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون عذاباً، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر» وقال الحسن البصري: عطلوا المساجد ولزموا الضيعات ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ أي خسراً.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئًا﴾ ﴿٦٠﴾

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي إلا من رجع عن ترك الصلوات، واتباع الشهوات فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئًا﴾ وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها. وفي الحديث الآخر «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ ﴿٦١﴾

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ

عِبَادِهِ ﴿بِظَهْرِ الْغَيْبِ، أَي هِيَ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَا رَأَوْهُ، وَذَلِكَ لَشِدَّةِ إِيقَانِهِمْ، وَقُوَّةِ إِيمَانِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ وَعَدُّهُم مَائِيًّا﴾ تَأْكِيدٌ لِحَصُولِ ذَلِكَ وَثُبُوتِهِ وَاسْتِقْرَارِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ وَلَا يَبْدِلُهُ ﴿مَائِيًّا﴾ أَي الْعِبَادُ صَائِرُونَ إِلَيْهِ وَسَائِتُونَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ ﴿مَائِيًّا﴾ بِمَعْنَى آتِيًّا، لِأَنَّ كُلَّ مَا أَتَاكَ فَقَدْ آتَيْتَهُ.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ﴿١٦٢﴾

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أَي هَذِهِ الْجَنَاتُ لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ سَاقِطٌ تَافَهُ لَا مَعْنَى لَهُ، كَمَا قَدْ يَوْجَدُ فِي الدُّنْيَا. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أَي فِي مِثْلِ وَقْتِ الْبُكْرَاتِ، وَوَقْتِ الْعَشِيَّاتِ، لَا أَنَّ هُنَاكَ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَلَكِنَّهُمْ فِي أَوْقَاتٍ تَتَعَاقَبُ يَعْرِفُونَ مَضِيئَهَا بِأَضْوَاءِ وَأَنْوَارٍ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ زِمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ، صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصِقُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، آتَيْتِهِمْ وَأَمْسَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمَسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يَرَى مِخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحَسَنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، يَسْبَحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿١٦٣﴾

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أَي هَذِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي وَصَفْنَاهَا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ هِيَ الَّتِي نُورِثُهَا عِبَادِنَا الْمُتَّقِينَ وَهُمْ الْمُطِيعُونَ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالكَاطِمُونَ الْغَيْظَ وَالْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ.

﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا يُبَيِّنُونَ آيَاتِنَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ﴿١٦٤﴾

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِجَبْرِئِيلَ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟ قَالَ فَتَزَلْتُ ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ مَا يُبَيِّنُونَ آيَاتِنَا﴾ مَا بَيْنَ آيَاتِنَا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ مِنَ الْأَمْرِ الْآخِرَةِ ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ مَعْنَاهُ مَا نَسِيَكَ رَبُّكَ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ يَرْفَعُهُ «مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسِيَ شَيْئًا» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ﴿١٦٥﴾

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَي خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ وَمُدَبِّرِهِ وَالْحَاكِمِ فِيهِ الْمُتَصَرِّفِ الَّذِي لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أَي هَلْ تَعْلَمُ لِلرَّبِّ مِثْلًا وَشَبِيهًا، أَوْ لَيْسَ أَحَدٌ يُسَمَّى الرَّحْمَنَ غَيْرَهُ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ اسْمُهُ.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿١٦﴾ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ
يَكُ شَيْئًا ﴿١٧﴾﴾

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبْ
قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: 5] وفي الصحيح «يقول تعالى: كذبنى ابن آدم، ولم
يكن له أن يكذبنى، وأذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذبيه فقوله لن يعيدني كما بداني،
وليس أول الخلق بأهون علي من آخره، وأما أذاه إياي فقوله: إن لي ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي
لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد».

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿١٨﴾﴾

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً،
وشايطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ يعني قعوداً ﴿وَرَوَى كُلُّ امْتَرٍ
جَائِئًا﴾ [الجانة: 28] أو قياماً.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا ﴿١٩﴾﴾

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني من كل أمة ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا﴾ أي لننزعن من أهل كل دين
قادهم ورؤساءهم في الشر.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار
جهنم، ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب.

﴿وَإِن يَنْكُرُوا إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

عز الحسن البصري قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك
أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: فقيم الضحك؟ قال: فما رثي ضاحكاً حتى لحق الله. قال رسول
الله ﷺ: «يرد الناس كلهم، ثم يصدرون عنها بأعمالهم» رواه الإمام أحمد والترمذي. وروى ابن
جرير عن عبد الله قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية
كأريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلم
سهم. روى الإمام أحمد «لا يدخل النار أحد شهد بدرأ والحديبية» قالت حفصة: أليس الله يقول
﴿إِن يَنْكُرُوا إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقرأ رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ تَنجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: 72] وفي الصحيحين «ولا
يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم».

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط من الكفار والعصاة نجى الله المتقين منها بحسب أعمالهم فجاوزهم الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيخرجون خلقاً كثيراً، وقد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم، وهي مواضع السجود، وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان وثم الذي يليه، ثم الذي يليه حتى يخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر «لا إله إلا الله» ولم يعمل خيراً قط ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءآيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ

نَدِيًّا ﴿٧٧﴾﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة، بينة الحججة، واضحة البرهان أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي أحسن منازل، وأرفع دوراً، وأحسن ندياً، وهو مجتمع الرجال.

﴿وَكُرِّهْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنَا وَرِيًّا ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَكُرِّهْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكتناهم بكفرهم ﴿هُم أَحْسَنُ أَثْنَا وَرِيًّا﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين برهبهم المدعين أنهم على الحق، وإنكم على الباطل ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أي منا ومنكم ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أي فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقي ربه، وينقضي أجله ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يصيبه ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ بغتة تأتيه ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خير المقام، وحسن الندي.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٨٠﴾﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه، وزيادته على ما هو عليه أخبر بزيادة المهتدين هدى كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًىٰ إِبْرَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٧٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴿التوبة: 124، 125﴾ وقوله: ﴿وَأَلْبَيْتُنَا الصَّلَاةَ حَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي جزاء ﴿وَحَيْرٌ مَرَدًا﴾ أي عاقبة ومرداً على صاحبها. روى عبد الرزاق قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحط ورقه، ثم قال: «إن قول لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله تحط الخطايا كلما تحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات، وهن من كنوز الجنة».

﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾

روى الإمام أحمد عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاصي بن وائل دين، فأتيته اتقاضاه منه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث، قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيك، فأنزل الله ﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: 80] أخرجه صاحبنا الصحيحين وغيرهما.

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمٍ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿أَمٍ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ موثقاً.

﴿كَأَنَّ سَنَكَبٌ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾

﴿كَأَنَّ﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأکید لما بعدها ﴿سَنَكَبٌ مَا يَقُولُ﴾ أي من طلبه ذلك، وحكمه لنفسه بما يتمناه، وكفره بالله العظيم. ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي في الدار الآخرة على قوله. ذلك، وكفره بالله في الدنيا.

﴿وَرَبُّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَرَبُّهُ مَا يَقُولُ﴾ أي من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يؤتى في الدار الآخرة مالا وولداً زيادة على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يسلب من الذي له في الدنيا، ولهذا قال ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي من المال والولد.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾

يخر تعالى عن الكفار المشركين برهبهم أنهم اتخذوا من دونه آلهة، لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعتزون بها ويستنصرونها.

﴿كَأَنَّ سَيِّكْفُورُونَ بَعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طمعوا فقال ﴿كَأَنَّ سَيِّكْفُورُونَ بَعَادَتِهِمْ﴾ أي يوم

القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِذَاً﴾ أي بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الاحقاف: 5، 6] وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِذَاً﴾ أي بخلاف ما رجوا منهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْزُؤُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

﴿تَوْزُؤُهُمْ أَزًّا﴾ تغريمهم إغراء، أو تحرضهم على محمد وأصحابه، أو تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾﴾ لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله. ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ نعد أنفاسهم في الدنيا.

﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله، وصدقوهم فيما أخبروهم وأطاعوهم فيما أمرهم به، وانتهوا عما زجروهم أنه يحشرهم يوم القيامة، وفدأً إليه. والوفد هم القادمون ركباناً، ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه.

﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ﴿٨٦﴾﴾

وأما المجرمون المكذبون للرسول، المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار ﴿وَرِدًا﴾ عطاشاً.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء: 100، 101] وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ هذا استثناء منقطع، بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقوقها.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾

لما قرر هذا تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى ﷺ، وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علواً كبيراً، فقال ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ أي في قولكم هذا ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾ عظيماً.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ

وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ . . .﴾ أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالاً، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفاء له، بل هو الأحد الصمد. وفي الحديث «لقتوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة» فقالوا: يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟ قال: «تلك أوجب وأوجب» ثم قال: «والذي نفسي بيده، لو جيء بالسموات والأرضين، وما فيهن، وما بينهن، وما تحتهن، فوضعن في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن» هكذا رواه ابن جرير.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ أي لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته، لأنه لا كفاء له من خلقه، لأن جميع الخلاق عبيد له.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم.

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ أي لا ناصر له، ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية، يخبر أنه يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة، وهذا أمر لا بد منه، ولا محيد عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه، روى مسلم والبخاري والإمام أحمد عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وأن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم

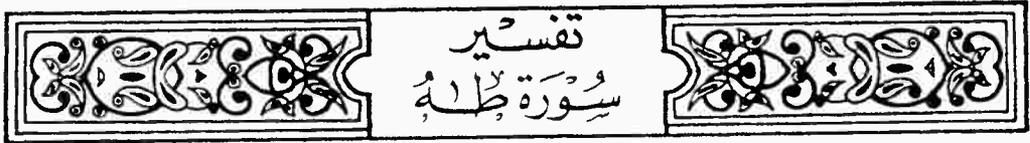
ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض».

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْتُهِ بِلِسَانِكَ لِيُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (٩٧)

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْتُهِ﴾ يعني القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي يا محمد، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ﴿لِيُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي المستجيبين لله المصدقين لرسوله ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ أي عوجاً عن الحق، مائلين إلى الباطل. والألد: الخصم، أو الكذاب.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (٩٨)

﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي هل ترى منهم أحداً، أو تسمع لهم صوتاً؟ والركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ (١)

﴿طه﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) ﴿إِلَّا نَذْكِرَ لِمَنْ يَخْشَى﴾ (٣)

روى القاضي عياض في كتابه الشفاء عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله ﴿طه﴾ يعني طاً الأرض يا محمد ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ثم قال: ولا يخفى ما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة. عن الضحاك لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى. ﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا نَذْكِرَ لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾ فليس الأمر كما زعم المبطلون، بل من آتاه الله العلم وقد أراد به خيراً كثيراً كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وما أحسن الحديث الذي رواه الطبراني عن رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: إنني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي» إسناده جيد. قال قتادة: لا والله، ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة. ﴿إِلَّا نَذْكِرَ لِمَنْ